

قراءة في كتاب :

الإمام السيوطي وكتابه: التَّحْدُثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ

عن ص الأستاذ: عبد الواحد حميد والمحب

يقول الإمام السيوطي عن سبب تأليفه كتاب «التحدث بنعمة الله» إن التحدث بنعمة الله مطلوب شرعاً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وأورد في هذا الشأن عدة أحاديث نبوية تحث على التحدث بنعمة الله شكراً، وتحذر - ضمناً - من التحدث بها استطلاعة وتكبراً..

والتحدث بنعمة الله يورث المزيد منها، لأنه شكر، والشكر يقتضي الزيادة، لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. ويستشهد السيوطي بما يقوله ابن القيم: «إن الشيء الواحد تكون صورته واحدة، لكن يتقسم إلى: محمود، ومذموم. من ذلك: التحدث بالشكر. شكراً، أو فخراً بها.. فالأول: يقصد به إظهار فضل الله وإحسانه، ومدحه، والثناء عليه، ويمتد النفس على الطلب منه، دون غيره، وعلى رجائه.. والثاني: المقصد به الاستطالة على الناس، وإظهار أنه أعز منهم، وأكبر، واستعباد قلوبهم، واستمالتهما.

هكذا بدأ السيوطي كتابه «التحدث بنعمة الله» ليبرر به سبب تأليفه لكتاب يتحدث فيه عن نفسه، أو بالأحرى عن أعماله، وعما أقاض الله عليه من علم، فاق به نظراءه، يذكر ذلك من قبيل الشكر لله.. فهو عبارة عن ترجمة لذاته، وجهده وعمله..

والكتاب قامت بتحقيقه: أليزابيث ماري سارتن، من كلية الدراسات الشرقية، جامعة كامبردج، بإنجلترا، وطبع بالقاهرة، بالطبعة العربية الحديثة، عام ١٩٧٢م، وخرج في ٣٨٤ صفحة، من الحجم

الأقل من الوسط (مقاس ٢٢×١٤ سم) بما فيها الهوامش والتعليقات، الموضوعة في نهاية الكتاب، وكذا الفهارس.

وقد اعتمدت المحققة في عملها على نسخة خطية، موجودة بمكتبة توينجن بألمانيا، كما رجعت إلى بعض المخطوطات التي اعتمد مؤلفوها على كتاب «التحدث بنعمة الله» ونقلوا منه فقرات، وذلك مثل مخطوطة «هجة العابدين» للشاذلي، ومخطوطة الداوودي، التي أورد فيها مسموعات السيوطي عند ترجمته له..

ويتوي الكتاب على ٢١ فصلاً، أضافت إليها المحققة الجزء الذي نقله كل من الشاذلي، والداوودي، ووضعتها تحت عنوان «ملحق» ثم أوضحت منهجها في عملية التحقيق، والجهد الذي بذلته في قراءة الأصل، ومحاولتها تصويب النص، والهوامش التي وضعها لهذا الغرض، ثم الفهارس، وعموماً فإن الجهد الذي بذلته المحققة، هو جهد تستحق عليه الإشادة والتثوية، من كل عاكف على خدمة التراث الإسلامي، ومحِب له.. وقد وضعت كل مجموعة من فصول الكتاب تحت أرقام متسلسلة إلى النهاية، لسهولة الرجوع إليها، عند التعليقات الموضوعية في نهاية الكتاب.

عرض محتوى الكتاب:

بدأ المؤلف كتابه بما ذكرناه في المقدمة. من أن التحدث بنعمة الله مطلوب شرعاً، يفرض توجييه لله تعالى. دون المباهاة والتكبر، ثم استشهد على أن العلماء السابقين له، قد كتبوا لأنفسهم تراجم، ولم في ذلك مقاصد حميدة، كالتحدث بنعمة الله، والتعريف بأحوالهم ليقندي بهم، ويستفيد منها من لا يعرفها، ويعتمد عليها من أراد ذكرهم في تاريخ، أو طبقات، وقد فعل ذلك الإمام عبد الغافر القارسي، أحد حفاظ الحديث، والعماد الأصبهاني، والفقهاء عمارة اليمن، وياقوت الحموي، ولسان الدين الخطيب، والإمام أبو شامة، وتقي الدين القاسي، وابن حجر، وأبو حيان.. ثم يقول: «وقد اقتديت بهم فوضعت هذا الكتاب، تحدثاً بنعمة الله، وشكراً، لا رياء ولا سمعة، ولا فخراً».

ثم يتحدث عن نسبه، مبيّناً جهود والده العلمية، وكذا ما وصل إليه بعض أجداده من مراتب علمية وراثية، فهو: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن المهام، الخضير، الأسيوطي، مبيّناً عجزه عن معرفة سبب نسبته إلى «الخضير» تماماً كما عجز ابن السمعاني عن تعليل نسبته إلى «السمعاني» مع أنه ألف كتاباً حافلاً في الأنساب،

وكذا عجز التاج السبكي عن تعليل نسبه. مع أنه ألف كتاباً في التراجم، وهو الطبقات الوسطى .. ولا يعاب هذا على العلماء .. والسيوطي، أو الأسيوطي، نسبة إلى أسبوط، إحدى البلدان الكبرى في صعيد مصر، التي ينسب إليها أجداده، الذين كانوا من أهل الوجاهة والرياسة فيها، حيث استوزرهم الملوك والأمراء، ومنهم من ولي القضاء، والحسبة، والفتيا، والتدريس، وأن والده ولدها، أما هو فقد ولده بالقاهرة، ثم استقر في ذكر مشاهير العلماء الذين ينسبون إلى أسبوط، وقال: إنه أفرد لها تاريخاً حسناً في مجلد لطيف، اقتداء بمن أفرد من المحدثين لبلده تاريخاً، كتاريخ مكة، لكل من الأزرق، والقاسي، وتاريخ المدينة المنورة، لكل من الزبير بن بكار، وابن النجار، وزين الدين المراغي، وعفيف الدين المطري، وتاريخ بيت المقدس لأبي القاسم مكّي بن عبد السلام، ثم عُدَّ مجموعة كبيرة من المصنفات في تاريخ المدن والبلدان ... كتاريخ إصبيان، وتاريخ الأندلس، وتاريخ بغداد، وتاريخ سمرقند، وتاريخ اليمن. وغيرها.

اشتهر بلقب جلال الدين، وكان جلال الدين المحلي قد بدأ في تفسير القرآن الكريم تفسيراً مختصراً مبسراً، بدأه بالعوفيين حتى وصل إلى سورة الإسراء، ثم توفي دون أن يكمله، فأكمّله السيوطي، وعرف هذا التفسير «بتفسير الجلالين» أي جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي.

ولد ليلة الأحد مستهل رجب عام ٨١٩هـ، ونشأ يتيماً، حيث توفي والده في شهر صفر عام ٨٥٥هـ، ولم يكن هو قد جاوز السادسة من عمره، لكنه جد في طلب العلم، وتحصيل الدروس، منذ صغره، حتى فاق أقرانه، ويزر أثره، وأخذ عن كثير من العلماء، يقول:

وأجاز لي خلق كثير، من الديار المصرية، والحجاز، وحب، وقد جمعت معجماً كبيراً في أسماء من سمعت عليه، أو أجازني، أو أنشدني شعراً، فبلغوا سبائة نفس .. وشيوخ الرواية منهم أربع طبقات. ثم عُدَّ أسماء شيوخه من الطبقات الثلاث الأولى، فبلغ عددهم مائة وثلاثين شيخاً، منهم تسعة وعشرون من النساء الفضليات، اللاتي بلغن مرتبة عالية في العلم، حتى كن جديرات بأن يأخذ السيوطي العلم على أيديهن، وأن يشيد بفضلهن .. وفي الطبقة الرابعة أكثر من مائتي نفس، هو ساو لهم في الدرجة.

وأورد فضلاً لفتاوي خالف فيها فتاوي والده، التي أفضى بها من قبل، معللاً ذلك بأمرين:

أولها: إفادة العلم من أنه لا يستجيزكم ما ظهر له من العلم مخالفاً لما عليه غيره، بل يديه وينشره، لأن الله جل جلاله أقامه في منصب الاجتهاد.

وثانيهما: ليلتص الناس عثره في مخالفة أهل عصره، ويعلموا أنه ليس غرضه من تلك المخالفة، المغالاة والتصعب، بل الغرض هو اتباع الحق، وترك الغيبة في الدين، فإنه لو حابا أحداً، لكان أحق الناس بالغيبة هو والده، لكنه لا يجاني في الدين والدأ ولا غيره..

ثم أورد فضلاً لثلاثة أحاديث نبوية... يقول إنها ثلاثة أحاديث عشرية، أي ليس بينه وبين النبي ﷺ، فيها إلا عشرة أنفس من الرواة، وقال إن هذا في غاية العزة. ثم أوردتها يستدعا.. وبعداً أورد أحاديث صحيحة أخرى، بينه وبين النبي ﷺ، من الرواة أحد عشر راوياً، أتى منها بعشرة أحاديث بالنص..

وقال: «إنه في ربيع الآخر عام ٨٦٩هـ، توجهت إلى الحجاز الشريف، لأداء فريضة الحج، وقد جمعت فوائد من هذه الرحلة، وما وقع لي بها، وما ألفت فيها، أو طالعته، أو نظمت، ومن أخذت عنه من شيوخ الرواية، كل ذلك في تأليف سميت «التحفة الزكية في الرحلة النكية» ثم عاد إلى وطنه عام ٨٧٠هـ، وقام برحلة إلى دمياط والإسكندرية، واجتمع بعلما هذين البلدين، وبغيرهما ممن مر عليه من البلدان.. في ذهابه وعودته، ثم لما رجع من تلك الرحلة إلى القاهرة جلس للتدريس في شوال عام ٨٧٠هـ، فحضر درسه العديد من طلاب العلم، ومن كانوا قد جلسوا من قبل للتدريس، وفي عام ٨٧٢هـ، ابتدأ في إملاء الحديث على طلاب العلم، وكان إملاء الحديث قد انقطع بموت الحافظ ابن حجر، منذ عشرين عاماً، فأمل ١٥٥ مجلداً، غير متصلة، ثم تصدى للإفتاء، وجمع معظمها في ثلاثة مجلدات، وفي عام ٨٧٧هـ، تولى تدريس الحديث بجامع الشيخونية بالقاهرة، وكان يدرس فيه الحديث من قبل الحافظ ابن حجر عام ٨٠٨هـ.

مصفاته:

بلغت مصنفات جلال الدين السيوطي ٤٥٨ مؤلفاً، وهو كرم هائل، يقف الإنسان العادي أمامه مبروراً، لا سباً وأن بعضها يحتوي على عدة مجلدات.. ومعروف أن من يتصدى للتأليف في أي علم.. لا بد أن يقوم بالإطلاع على أضعاف أضعاف ما يقوم بتأليفه في هذا العلم، من كتب ومراجع لغزوه.. كي يبني قريحته بما يملئ على قلمه فكيف تسنى له أن يقرأ أضعاف تلك الكتب؟ ومعروف أن الكتب في عصره كانت مخطوطة.. ولا يتم تداولها في الغالب، إلا بنقلها خطياً.. والبعض كان يسافر لمسافات بعيدة كي يحصل على كتاب سمع عنه!.. إن البحر الزاخر بالتراث الإسلامي، هو نتاج هذه

المقول الفذة .. التي يطلق عليها بحق أئمة المسلمين .. وأياً كان فقد قسم السيوطي مؤلفاته إلى سبعة أقسام:

القسم الأول: ادعى فيه التطرد، أي أنه لم يؤلف له نظير من قبل، وكما يقول: لا لعجز المتقدمين - معاذ الله - ولكن لم يتفق أنهم تصدوا لظه، وهم ثمانية عشر كتاباً. بعضها يحوي عدة مجلدات، منها كتاب «الافتحان في علوم القرآن» و«النور المنور في التفسير بالمأثور» و«أسرار التنزيل».

القسم الثاني: ما ألف فيه ما يتأخره، ويمكن للعلامة أن يأتي بمثله، ككتاب «الخصائص النبوية» و«لياب القول في أسباب النزول»..

القسم الثالث: ما تم تأليفه من الكتب الصغيرة الحجم - من كراستين إلى عشرة - مثل كتاب «التحبير في علم التفسير».

القسم الرابع: ما كان كراساً ونحوه، مثل كتاب «كُتِبَ الأقران في كتب القرآن» و«اللمع في أسماء من وضع».

القسم الخامس: ما ألف في موضوعات الفناوي، وهي من كراس، وحققه، ودونه، مثل كتاب «المصاييح في صلاة الزاويح» و«بسط الكف في إنعام الصف».

القسم السادس: مؤلفات لا يعتد بها [يقول] ألقنها زمن السجاع، وطلب الإجازات، مع أنها مشتملة على فوائد بائسة لما يكتبه الغير.

القسم السابع: ما شرعت فيه، وكتبت منه قليلاً، ثم فتر العزم عنه فلم أتمه.

ثم أتى بفصل ذكر فيه ما كُتِبَ على بعض مؤلفاته من تقييد ومدح، قائلاً: إن أول مؤلفاته كان «شرح الاستعاذة والبسملة» و«شرح الخيعة والحقلة» وذلك عام ٨٦٥هـ، وقد قرظها شيخه علم الدين البلقيني، وكتب غيره من المشايخ بمدح مؤلفاته الأخرى. كشمس الدين القادري، والشمسي، وعبي الدين المالكي الأنصاري، وشهاب الدين الحجازي، وغيرهم، وانتشرت كتبه في حياته، وتلقاها العلماء بالقبول والاستحسان، وكثير منها تال الإطراء والثناء .. وسعى في طلبها العلماء والطلاب على حد سواء .. وقد أتى بفصل ذكر فيه كيف كان العلماء يكتفون به رغبة في الحصول على بعض تلك الكتب، يقول فيه: .. ومن ذلك أنه في عام ٨٧٥هـ قدم من المغرب الشيخ يحيى بن أبي بكر - المشهور بابن الجحود المصري، واشترى مجموعة من تصانيفي، وسافر إلى بلده، وعاد بعد سبع

سنين، ومعه أخوته، وسمع هو وأخوته مني الحديث، وكتبوه عني، وفي عام ٨٧٤هـ ذهب بعض أصدقاء والدي إلى الشام، والعراق، واستبول، ومعهم بعض مصنفاتي، فعرفها الناس، وقرأها العلماء، وأقبل الجميع عليا - وأتى طالب من الشام حسن الخط، يقال له: نور الدين بن البيطار، فأقام أكثر من سنة يكتب مؤلفاتي، إلى أن حصل على أكثر من ثلاثين كتاباً، وذهب بها إلى الشام، ثم قدم مرة أخرى، ونقل أكثر من عشرين كتاباً وذهب بها، وفي عام ٨٧٩هـ، سافر أحد تلامذتي إلى الحجاز، ومعه كتاب «الأشياء والنظائر» فقله منه طالب من البجائيين، وذهب به إلى بلاد اليمن، وراه معه قاضي الحجاز ابن ظهيرة، فنقل منها نسخة، ثم كتب ابن ظهيرة لبعض أصدقائه في القاهرة، ليكتب له «تكلة تفسر الجلال المحلى» وغيره من كتب .. ثم سافر طالب من تلامذتي إلى الحجاز عام ٨٨٧هـ، ومعه مجموعة من مؤلفاتي فقلوها منه هناك .. وسافر بعد ذلك جمع من تلامذتي، ومعهم بعض مؤلفاتي، فكانوا ينقلونها منهم .. ووصلت مؤلفاتي إلى الهند، وفارس، والسودان، وغيره..

مختته:

ويبدو أن شهرة السيوطي الذائعة، قد جعلته يدفع ثمنها غالياً، وجلبت إليه كثيراً من المتابع .. وذلك حين نفس عليه البعض، غيرةً وحسداً، فأرادوا النيل منه، وسلخوا في سبيل ذلك كل مسلك .. ونراه قد أتى بفصل عنوانه «ذكر نعمة الله عليّ في أن أقام لي عدواً يؤذيني، وابتلائي بأني جهل بغمضي، كما كان للسلف مثل ذلك» استنبهه بالآية الكريمة، من قوله تعالى «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» ويقول الرسول ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم العلماء، ثم الصالحون..» ثم أتبع ذلك بالعديد من الأحاديث والآثار، التي تناولت هذا الموضوع، وأنه ما كان كبير في عصره قط إلا كان له عدو من السفلة، فكان لآدم عليه السلام إبليس، ولإبراهيم نمرود، ولموسى فرعون، ولنبينا محمد - عليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام، كان له - أبو جهل وزمرته، ولم يسلم كبار الصحابة من ذلك، فكان للحسن بن علي مروان بن الحكم، ولابن عمر رجل يؤذيه كلما مر عليه، ولابن عباس نافع بن الأزرق، وهذا سعد بن أبي وقاص، أحد العشرة المبشرين بالجنة، لاقى من جهال أهل الكوفة الشيء الكثير، وقد شكوه إلى عمر بن الخطاب، حتى قال له عمر: «شكوكك في كل شيء»، حتى قالوا إنك لا تحسن أن تصلي !! .. ثم ما قاساه الإمام مالك من أهل عصره، وما لاقاه الإمام الشافعي من جهال أهل مصر .. وما عاناه الإمام ابن حنبل، وما قاساه البخاري من أتداده، والغزالي من أعدائه، وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين.

ثم يقول: وفي ذي القعدة عام ٨٧٩هـ، أثار بعض الجهال عليّ ثائرة، بسبب مسألة الحلف بالطلاق على غلبة الظن .. وكان أهل الشام يفتون فيها بالحنث، وأهل مصر بغير الحنث، فجلست أبحث في هذه المسألة، وأتبع قول العلماء السابقين فيها، حتى اطلعت على مجموعة بخط العلامة شمس الدين ابن القفاح، أحد مشايخ التاج ابن السبكي، فوجدته ذكر فيها فضلاً طويلاً من كلام القاضي تقي الدين ابن رزين، تلميذ ابن الصلاح .. قرأت ذلك وغيره، وقررت فيها الحنث مخالفاً بذلك ما عليه أهل مصر، وموافقاً ما عليه أهل الشام .. أفتيت بهذا حين كنت أدرس بالجامع الطولوني، وحررتها في كتابي «الأشياء والنظائر» وعندنا أثار عليّ هذا الجاهل المبتدئ ثائرة ذوي الأهواء من العلماء، وكان من بينهم الشيخ شمس الدين الباني، الذي أفتى بعدم الحنث، وقال: إن هذا هو المذهب، ومن قال بغير ذلك يلزمه التعزير..

لقد جرت عادة العلماء إذا أفتوا في مسألة فقهية، أن يتناولوا آراء غيرهم فيها ثم يشعرونها بآرائهم، وأدلّتهم على ما ذهبوا إليه، ثم يعمنون ذلك بقولهم .. والله أعلم .. وبعضهم يحطّئ ما ذهب إليه غيره .. أما أن يطالب بتعزير من خالفه .. فأمر نادر الحدوث .. لقد حاج وماج التلاميذ .. والعلماء أيضاً .. وأصبح السيوطي في موضع الإنهام .. بالقدر الذي يقلل من رتبته العلمية، ويضع من قدره وجهده العلمي، إن لم يسارع بتقديم الأدلة والبراهين على صحة قواه، ويأتي بما يبرر ساحته من التعزير، وتطلعت الأنظار إلى السيوطي ترقب ما يأتي به، فإذا به يتففس إنتفاضة الواقع من نفسه، ويحجب بما يفحم الخصم، بل يعيد السهم إليه، حين يقول: أنا إنما ذكرت شيئاً نص عليه الإمام الشافعي في موضعين من كتاب «الأم» وقال به جماعة من أئمة الصحابة المتقدمين، وقال به من المتأخرين ابن الصلاح، وابن رزين، والقصولي، والأذري، والتركشي، والكمال النعميري، والشيخ ولي الدين العراقي .. أفترى هؤلاء جميعاً يلزمهم التعزير!! .. بل أنت أيها الشيخ الذي يلزمك التعزير لعدة وجوه.

١- إنك أفتيت بخط نفسك، وعلى عدو، وحق المفتي أن يفتي بحكم الله، لوجه الله، فإن المفتي مؤثّق عن الله، وتعزير عنه سبحانه، لا عن نفسه.

٢- إنك زعمت أن من نقل خلاف المذهب يلزمه التعزير، ونحن قامت لدينا الأدلة، والنقول، على أن المذهب هو الحنث، وأن عدم الحنث خلاف المذهب، فإن كان من نقل خلاف المذهب يلزمه التعزير، فأنت الآن نقلت خلاف المذهب، فإلزمك التعزير، مع أننا لا نقول بذلك، لكنه جواب جدي.

٣- إن إشراكك بتمزيق من قال ذلك، هو حكم نسبته إلى الله، وأنت كاذب على الله فيه، لأن أكثر ما كان يمكن أن يقال في هذا المقام هو أن يقال: إن قائل ذلك محطىء. ولم يحكم الله، ولا رسوله، على محطىء بتعزير، ولا إثم في باب الاجتهاد، بل وعده بالأجر إن أخطأ، وللمصيب أجران .. فمن أين جاء لزوم التعزير؟ .. ما جاء ذلك إلا من قبل نفسك، والشيطان ..

يقول السيوطي: ثم إنني زدت في الكراسة التي ألفتها في هذه المسألة نقولاً، وأبحاثاً، وكتبا الطلبة، وتداولوها بأيديهم، وأرسل إلى كثير من أهل الشام يطلبونها.

ولما بلغ هذا الجاهل ما وقع بيني وبين أزدعمر، حاجب الحجاب، من إنكاري عليه ما صدر منه في حق السنة والصحابة، ذهب إليه ليعينه عليّ، وملاً مسامحه من ذمي، لكن الله رد كيده في نحره. وكان ذلك عام ٨٧٩هـ. وكنت وقتها قد قلت هذا الترتيب: «شاهدت الوجوه، وخرس اللكع، وفطن فوه، ولعن إبليس وجنوده وذووه، لقد جئت وأجبت، وما يؤت بل أصبت، وغصت اللجة، فأوضحت البهجة، وأفتت الحجة، وحررت النقل والدليل، وميزت الصحيح من العليل، فعددت شوقاً، موقه، إلى العناد مشوقة، جهلت العلم وأضلت الحظم. لا مقدارها عرفت، ولا أهل العلم أنصفت، فلم يفهم الخطاب، ولم يفهم الصواب. فرامت توهين العتد بلا سند .. فقطعنا سيف الحق رأسهم، وأزهقنا بروح العلم أنفاسهم ..»

وبعد ذلك يقول السيوطي: ثم إنني ربيت أسئلة تتعلق بحروف المعجم، وأخرجتها لمن أبرز قوته في هذه المسألة، من الرؤوس، فلم يجز أحد منهم عنها جواباً من ذلك الحين وإلى الآن. وهي: «الحمد لله، يقول الفقير العاجز عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، متادياً بالملأ على رؤوس الأ شهداء، من أدعى أنه في العلم والفهم مقدّم، فليجب عما استهم من الأسئلة المتعلقة بحروف المعجم، ومن عجز عن تحرير ألف، ياء، تاء، ثاء، فليستغفر نفسه عن أن يقرر أبحاثاً؟! .. وهي:

السؤال الأول: ما هذه الأسماء: ألف، ياء، تاء، ثاء، جيم .. الخ. وما معناها؟ .. وهل هي أسماء أجناس، أو أسماء أعلام؟ .. فإن كان الأول، فمن أي أنواع الأجناس هي؟ وإن كان الثاني فهل هي شخصية، أو جنسية؟ فإن كان الأول، فهل هي منقولة أم مرتجلة؟ فإن كان الأول فقيم نقلت؟ أمن حروف، أم أفعال، أم أسماء أعيان، أم مصادر، أم صفات؟ وإن كانت جنسية، فهل هي من أعلام الأعيان، أو لمعاني؟

السؤال الثاني: من وضع هذه الحروف، وفي أي زمن وضعت، وما مستند واضعها، هل هو العقل، أو النقل؟ ..

السؤال الثالث: هل هذه الحروف مختصة باللغة العربية، أو عامة في جميع اللغات؟

السؤال الرابع: الألف والمهزة، هل هما مترادفتان، أو مفترقتان؟ وعلى الثاني، فما الفرق، وأيهما الأصل؟

السؤال الخامس: لم أجمع علماء اللغة، والعدد، وغيرهم من المتكلمين على المفردات على الابتداء بحرف المهزة، وهل هو أمر اتفاقي، أو لحكمة؟

السؤال السادس: كلمات: أنجد، هوز.. إلى آخرها، هل هي مهملة، أو مستعملة، وما عُني بها، وما أصلها، وكيف نقلت إلى المراد بها، وما ضبط ألفاظها؟

السؤال السابع: ما حكمها في: الابتداء، والوقف، والمنع، والصرف، والتذكير، والتأنيث، والإعراب، والبناء، واللفظ، والرسم، وعند التسمية بها؟ وما حكمها شرعاً عند نقشها على ثوب، أو بساط، أو حائط، أو سقف، وهل للحروف المجتمعة، أو المتفرقة حرمة؟

ثم يقول السيوطي: فهذه سبعة أسئلة، من أجاب عنها فهو من الرجال، وإلا فلا منزلة له على الأطفال!..

ولم يذكر السيوطي، في كتابه هذا، إجابة لتلك الأسئلة التي نحذى بها، ولو فعل لأفاد فائدة جمة.. ولا ننري هل تعرض لها في إحدى مؤلفاته الأخرى أم لا؟..

المهم أنه أورد قضية أخرى أثارها عليه خصمه هذا، وهي عبارة عن فتواه في هدم مكان استأجره البعض، واجتمعوا فيه لمزاولة أنواع من الفساد، فأفتى يهدمه وذهب خصمه إلى عدم إجازة هدم المكان.. وراح يستعدي عليه العلماء، والفقهاء، وعامة الناس.. وناصره في ذلك الشيخ الباني، كما هي عادته، وأفتى بتعزيز من قال بالهدم.. لكننا نجد السيوطي يتصدى لهم، ويدلل على ما ذهب إليه بالعديد من أفعال وأقوال الصحابة، وما نص عليه أئمة المذاهب الأربعة.. ثم وجه في نهاية رده كلمة إلى الشيخ الباني قال فيها: «..أنا لا أنكر علمك ومشيتك!.. لكن مثلي ومثلك، كما قال الشيخ عبدالله المتوفي لبعض شيوخه، حين وقعت بينها مشاحة وخصومة: أنت يا شيخ رجل عالم، ولكن ما أدبك العلم!..» وقد ألف السيوطي في هذه المسألة مؤلفاً سماه «رفع شعار الدين وهدم بناء المفسدين» ويسمى أيضاً: «هدم الحائى على الباني» وقد انتهت هذه الواقعة ببعث أحد أنصار هؤلاء المفسدين - وكان من حاشية قصوة الغوري - في مهمة رسمية خارج البلاد.. فلم يجدوا لهم مناصراً، ففزعوا،

وخلال المكان الذي كانوا يتجمعون فيه لمحاولة الفساد .. لكن جذوة الجدل الفقهي في هذه المسألة، ظلت مشتعلة، وكان ذلك عام ٨٨٦هـ.

كما حدثت مشاحة بينه وبين خصمه أيضاً في مسألة الطلاق في النكاح الفاسد. هل يقع أم لا؟ .. وأيضاً في حديث صلاة القنوت..

وفي سنة ٨٨٨هـ، كان مبدأ نائرة الشيخ الجوجري، وهو الشيخ شمس الدين محمد بن عبد المتعم ابن محمد، ولد عام ٨٢١هـ، يقول عنه السيوطي: كان في زمن شيوختنا يُعد من أذكى الطلبة وفصلاهم. إلا أن لديه حركة زائدة، وكثرة كلام، ومسارة إلى القول دون تثبت ولا تأمل، ولم يبرع في شيء سوى الفقه، ولم يبلغ فيه مبلغ الإمامة، بل الحد الذي كان عليه زمن كونه من أفاضل الطلبة، لم يزد عليه .. ولقد جاورت أنا وإياه بمكة المشرقة، في سنة ٨٦٩هـ، وعمرى إذ ذاك عشرون سنة، فكنيت أجلس أنا وإياه في حاشية المطاف، بالمسجد الحرام، قبل المغرب بساعة إلى ما بعد العشاء، نتحاور في أنواع العلوم، فما جاراني في شيء منها، فضلاً عن أن يسبني .. وكنت أستحضر في غرائب المنقولات، ودقائق القنوت الحفية، معزّوة إلى قائلها، من الكتب المشهورة والغريبة، حتى يقضي هو والحاضرون العجب من ذلك .. ثم تنتقل إلى نظم الشعر، وغيره .. وقد طلبت منه في تلك السنة شرحه الذي ألفه على «الشذرة» فاستمع، عشيّة أن أكتب عليه حاشية، أو اعترض عليه، فقلت له: أنت آمن من ذلك .. فأرانيه، فأحطت به، ثم رددته إليه، ووفيت له بما أمته .. ولما مات شيخ الإسلام المناوي، اتجهت الأعين إلى الشيخ فخر الدين القسبي، كي يحل محله في الفقه والتفكير والإفتاء .. غير أنه ما لبث هو الآخر أن توفي، وشغرت القاهرة بمن له جَلَد وصبر على غوغاء الطلبة. وكان الشيخ الجوجري قد اتخذ له مكاناً في الجامع الأزهر يدرس لبعض الطلبة. فلما شعر المكان انهالت عليه الطلبة، وتوافد إليه المستفتون، فأطلق قلمه بالصواب وبغيره - يقول السيوطي: - ولا أدفع الرجل - أي الجوجري - عن معرفة، ولا أنسبه إلى جهل. ولكن الرجل ليس من المتسكّنين الذين بلغوا مبلغ الإمامة، وأكثر ما يسأل عن الوقائع المشهورات، والمسائل الواضحات، فيجيب فيها بالصواب. ويسأل عن أشياء غير منقولة، أو الثقل فيها عزيز، فلا يستحضره، ويجب من تلقاء نفسه فيخطئ.. ثم يسفه من خالفه عن أنقى المسألة وعرفها، وينسبه إلى الخطأ والمجازفة. بينما هو المخطئ والمجازف! ..

ثم يسوق السيوطي ما وقع بينه وبين الشيخ الجوجري من مسائل خلافية، طال فيها الأخذ والرد، وأقتضت منه أن يؤلف فيها بعض المؤلفات .. واشتعلت حدة الخصومة بين السيوطي، وبين الجوجري وأنصاره، حين أثارت دعوى الاجتهاد، أي فتح باب الاجتهاد الذي كان قد أوصد من قبل. وينادي

السيوطي بفتححه، ويعترض على ذلك الجوزي وأتصاره، ويرفعوا الأمر إلى ذوي الشأن والسلطة، وطالبوا بعقد مناظرة بينهم وبين السيوطي لبحث هذه المسألة، فأجابهم السيوطي بأنه مستعد لذلك، لكن على أساس ما نص عليه العلماء من قبل من أنه لا يجوز، ولا يسوغ للمجتهدين أن يناظر المقلد، فناظرني - أي السيوطي - لنحاج إلى حضور مجتهدين، أحدهما يناظرني، وثانيها يكون حكماً بيني وبين من يناظرني .. فأتوني بهما! .. وكأنه بذلك يؤكد أن أيًا من خصومه لم يرق إلى رتبة المجتهدين .. لكن ذوي المروءة، والشأن، والسلطة، تدخلوا وأنهبوا الخصومة بينهما، بعد جهد جهيد .. ولم يلبث أن توفي الجوزي بعد ذلك بشهرين.

ثم يذكر السيوطي ما أتم الله عليه به من التحرف في العلوم، وبلوغ رتبة الاجتهاد، وذلك في فصل مستقل، قال لما سبق، يقول في بدايته: قد رزقت - والله الحمد - البحر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والتحرر، والمعاني والبيان والبدیع، على طريقة العرب البلغاء، لا على طريق المتأخرين من العجم، وأهل الفلسفة .. ودون هذه السبعة في العروة: أصول الفقه، والجدل، والتصرف .. ودونها القرائن، والإنشاء، والترسل .. فلا أقول إن مرتبي في الإنشاء والترسل تبلغ مرتبة الشهاب محمود، ولا ابن عبد الظاهر، ولا ابن فضل الله .. بل هي دون ذلك، في حد التوسط .. ودون ذلك في المعرفة: القراءات .. ولم آخذها عن شيخ، ولذلك لم أقرنها أحدًا، لأنها من إسناده مع أنني ألفت فيها تأليفًا بدیعاً .. وأما الحساب فأعسر شيء عليّ، ويثقل عليّ النظر فيه، لعدم ملاءمته لطبيعي.

ويعقب ذلك بفصل عن بلوغه رتبة الاجتهاد المطلق في الأحكام الشرعية، وفي الحديث النبوي، وفي العربية. ثم يوضح الفرق بين الاجتهاد المطلق والمقيد. ومن العلماء من بلغ هذا، وذلك من سابقه .. وهو فصل ممنوع .. ثم أتبع ذلك بفصل عن المبعوثين على رأس كل مائة سنة، ممن يحدد هذه الأمة أمر دينها .. متعرضاً بالذكر للأحداث النبوية، والمأثور الوارد في هذا الشأن ..

ويختم الكتاب بفصل عن إختاراته في الفقه، أي اجتهاداته في بعض المسائل الفقهية، خلافاً ما ذهب إليه مشايخه، ثم اختياراته في علم الحديث، وأصوله، وفي التحو.

ويلاحظ أن السيوطي لم يصرح باسم خصمه الذي كان يطلق عليه عبارة «الجاهل» مع أنه صرح ببعض أسماء الخصوم الآخرين، أمثال الشيخ شمس الدين الباني، والجوزي، ولا تدري ما سبب هذا؟! وما الداعي لعدم التصريح باسمه، كما أنه ذكر أيضاً وصفاً لرحلته إلى الحجاز، لآداء فريضة الحج. وبين الكتب التي قام بتأليفها أثناء رحلته، وبجاورته في الحرم المكي، والشيخو الذين أخذ

عنه، وكان من بينهم ابن ظهيرة، قاضي مكة في ذاك الوقت، والذي تحدث عنه بإفصاحة. وعن علمه، ثم يقول إنه وقعت بينها خصومة، نتيجة لسعي بعض أهل السوء بينها، واستمرت هذه الخصومة - حتى بعد أن عاد السيوطي لموطنه، القاهرة - لمدة عشرين عاماً، ثم تصالحا في النهاية، وزال ما بينها من جفاء، وحل محلها المودة والصفاء..

كما كان من أشد الناس خصومة للسيوطي، وأكثرهم تجرعاً له، وتشهيراً به، المؤرخ شمس الدين السخاوي، صاحب كتاب «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» فقد ترجم للسيوطي. ونال من علمه، وخطئه، وعدد عليه بعض المآخذ العلمية، وطعن في مقدرته وجهده العلمي.. وقد بلغ السيوطي ذلك فانتصر لنفسه في مقامة سماها «الكاوي على تاريخ السخاوي» كما انتصر له فريق من تلاميذه. وكذلك فريق من العلماء ممن أتوا بعده، كان من أقدرهم الإمام الشوكاني. صاحب كتاب «البدر الطالع بحاسن من» بعد القرن السابع عندما ترجم للسيوطي، فقد لحص المآخذ التي عددها السخاوي، ورد عليها واحدة واحدة، مبنياً تحامل السخاوي. وعدم إنصافه. لعالم انتشرت مؤلفاته في الأفطار، وسارت بها الركيان، ورفع الله له من الذكر الحسن، والثناء الجميل، ما لم يكن لأحد من معاصريه، وأما دعوى أنه كثير التصحيف والتحريف، فهي مجرد دعوى عاطلة عن البرهان، فهذه مؤلفاته محررة أحسن تحرير، ومتقنة أبلغ إتقان. ثم يقول الشوكاني، في نهاية رده: وعلى كل حال فهو غير مقبول عليه، لما عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل، بعدم قبول قول الأقران بعضهم في بعض، مع ظهور أدنى منافسة، فكيف يمثل المنافسة بين هذين الرجلين، التي أفضت إلى تأليف بعضهم في بعض.

والواقع أن الإمام الشوكاني قد أتصف في دفاعه عن جلال الدين السيوطي وفند مآخذ خصومه، ومطاعينهم عليه، وقطع كل مقولة حين أشار إلى مؤلفاته العديدة، المحررة أحسن تحرير، والتقنة أبلغ إتقان، والتي وصلت أيدينا أجزاء بسيرة منها، فوجدناها تحمل بين دفتها أبين دليل على رتبة جلال الدين، ومدى ما ارتقى إليه السيوطي، ليحتل مكانته بين الأئمة المجتهدين.

